

الشيخ كاظم الصحاف شاعراً .. 1313 هـ - 1399 هـ

مابالُ ثاركَ عن مثاركَ نازحُ

ولكَم شجاهُ من الصباية صادحُ

وإلامَ لم تنهض به متطلّابًا

والسيف في كف انتصارك لائحُ

أنت الرجا والمرجى والغيثُ إن°

عزّ النصير وقَلّ فيه الناصحُ

ضاق الخناق أبا الفتوح ولم نجد

إلاّك فاتحها فانت الفاتحُ

وكذلك جده الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحاف رحمه الله كان شاعرا مجيدا أيضا و من شعره في تخميس إحدى القصائد الشهيرة في أهل البيت عليهم السلام :

من نكبات الدهر لا أجزعُ

وإنني في العيش لا أطمعُ

وقائلٍ لي صاحٍ ما تسمعُ

(لأمّ عمرو باللوا مربعُ

طامسةُ أعلامهُ بلقعُ)

دارُ حوتٍ غيداءٍ حلّيةٌ

كانت بحسن الوصف معنيةً

فصيّرتهـا الريحُ معفيةً

(تروح عنها الطير وحشيةً

والأسودُ من خيفتها تفرعُ)

قد كنتُ في الليل لها أغلسُ

وفي حشا قلبي لها مجلسُ

مربعها تشجى به الأنفسُ

(برسم دارٍ ما بها مؤنسُ

إلا صلالُ في الثرى وُقّعُ)

تشوّق القلبُ لمحبوبهـ

لأنه غاية مطلوبه.

لله دهر كنت أخلو به.

(ذكرتُ مَنْ قد كنتُ ألهو به)

فبتُّ والقلب شَجَّ موعُ)

والمدهش أيضا أن الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله إنسَلَّ وكالشعرة من العجين من برائن الغزل الماديّ الذي قلّم ما يستطيع شاعر مهما كانت درجة ورعه و تدينه الإنفلاتَ منها , فنادرا ما تجد أبيات نسيب أو تشبيب للشيخ كاظم , و حتى وإنْ وجدتَ فستكتشف أنها مجرد مقدمة لقصيدة مدح أو رثاء لأحد أئمة أهل البيت ا لطاهرين عليهم السلام أو لأحد رموز الأمة , يجاري بذلك أسلافه من الشعراء الذين اعتادوا افتتاح قصائدهم بأبياتٍ من الغزل لجذب انتباه السامع وليس قصدا للغزل و التشبيب . وذلك لعمرى دليل واضح وإشارة جلية إلى امتلاء قلبه واكتناز مشاعره بمودتهم وبالولاء لهم عليهم السلام وقد عبّر هو عن ذلك بقوله :

إنّ قلبي اهتدى بآل محمد

وولائي لآلهِ قد تأكّد°

يا كتابي فقل لكل أديبٍ

لوذعيّ له الثقافة تشهد°

سَعُدَ الناس بالملوك وإنّسا

وكانّ الشيخ كاظم رحمه الله أراد أن يدخل فيما دخل فيه عميد شعراء الولاء الهجريّ (سفيان بن مصعب العبيدي) وشاعر بني عبد القيس الخالد الذي استأثر بشرفٍ لم يحض به شاعرٌ من قبله ولا من بعده عندما قال الإمام الصادق عليه السلام في حقه (علّموا أولادكم شعرَ العبيديّ فإنه على دين الله) .

وسأورد من الشواهد ما يثبت أن الشيخ كاظم رحمه الله لم يكن يقصد الغزل إلا لجذب انتباه المتلقي ولفتح نوافذ روح السامع لنور مناقب وطيب سجايا من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، يقول في مقدمة قصيدة في مدح النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله :

أهيّ الشمس أشرقت بضحاها

أم سُلّيمي بحسناها و ضياها

لست أنسى لها مراتب أنسى

قد هوتني بها كما أهواها

ليتها قد وفّت ولو بعض يومٍ

علّ نفسي تطيب مما اعترأها

وزماني بها يعود بوصلٍ

وبسعدٍ ولذبةٍ في هواها

مثلما عاد لي الزمان سعيداً

يوم ميلاد سيّد الرّسّال طه

ويقول في مطلع قصيدة أخرى في النبي الأكرم أيضا عليه الصلاة والسلام :

أشعاع الشمس أمّـ الفرقد°

طلّـعاً لي أمّـ وجه الأغيـد° ؟

فكأنّ الشمس بغرّـتهـ

والورد بخدّـيه تورّد

أصفيـتُ له حبي عشقاً

ووفيتُ له فيما يُعهد°

فأحلّـ العقدَ و خان العهدَ

وفلّـ الوعدَ و عني صدّـ

إلى ان يقول:

فكأن النور بطلعته

قد جاء من الهادي الأسعد

وختام الرسل وسيدها

وسراج هدى الرب الأوجد

ويقول في مطلع قصيدة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام :

أسناءُ الفجر لنا كبر

بجبينك أم بدرُ أزهر

وثنايا الثغر تلوح لنا

أم ذاك الدرُّ أم الجواهر

ياريم الحيِّ وأختَ البدر

ونور الصبح إذا أسفر

إن كان بدا مني ذنبٌ

فبمدح أبي حسنٍ يُغفَرُ

فيه نفسي أمِنَت و نَجَتُ

في الحشر من الفزع الأكبر

وحتى عندما يشكو الشيخ كاظم الزمان و جور بعض حساده عليه فلا يعوذ ولا يلوذ إلا بحبل الله و سفينة النجاة عليهم الصلاة والسلام , يقول رحمه الله:

أنفسيَ من جور الزمان غدت حرّى

أم الدهر وافاني ببطشته الكبرى؟

أعاني العَدَا طول الزمان وإنني

بفضل إله العرش لم أعرف الشرّاً

وأسمع أقوالا تقطّع مهجتي

كأنني لا أدري وكنت بها أدري

و أجبر فوق الضر نفسي تكلّفا

وأمسك في عيني سيول مدامعي

وأكتم والأحشاء من حره حرّى

فطورا بوادي الحزن ترقل ناقتي

وطورا بسوط الحمد أزجرها شكرا

وآليت لا أرمي زمام عقالها

بنارٍ ولا أدعو سوى الآية الكبرى

فذاك عليّ خير من وطئ الثرى

وحجة دين ا في الضر والسرا

فلا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى

كمثل عليّ حيثما صال أو كرّا

فمنذا يضاھيه بفضلٍ و رفعةٍ

وقد كلبت الأقلام عن عدها حصرا

وحارت به الأوهام حتى تقاصرت°

وتاهت ولم تدرك مقاما ولا قدرا

ويمكن للباحث و الدارس اعتبار هذه القصيدة الرصينة دليلا على ما كان يتوفر عليه الشيخ كاظم رحمه
الله من موهبة شعرية وفصاحة و حس أدبي ثري .

وعاملٌ آخر من العوامل التي تشكلت منها (الكاريزما) المذهلة للشيخ كاظم الصحاف رحمه
الله وهو جرأته الكبيرة ضد كل ما يتعارض مع الإخلاص في الوفاء لمبادئ أهل البيت عليهم السلام وكل ما
ينافي ما دعوا إليه من معرفة و تمجيد وطاعة الله سبحانه و تعالى , ومن ذلك رده الشهير على قصيدة (
الطلاسم) للشاعر إيليا أبو ماضي , فقد تصدى الشيخ كاظم لكل ما أطلقه أبو ماضي في تلك القصيدة من
شكوك وحيرة , يقول الشيخ كاظم في مواضع متفرقة من رده :

بوجود الكون والأنوار فيه تتللا

أثبت العقلُ إلهً أزلنا قد تعالى

وقديما أحديا عز قدرا و جللا

وقديرا بيديه الخير يجري

كنت أدري ..

يا مُربيا سأل البحر وقد زاد ارتيا با

عن دليل العقل والنقل فخذ مني الجوابا

لم تكن أنت من البحر ولا الراوي أصابا

أنت من قدرة ربي لستَ منه

كنت أدري ..

إنَّ في الدير رجالا طلَّقوا الدنيا اعتزالا

بعقول راجحاتٍ وعلومٍ تتللا

وحلومٍ راسياتٍ كجبالٍ لن تزالا

ماههمُ عميُّ ولكن أنت أعمى

كنت أدري ..

فإذا شمّتَ تساوي الناس في هذا المكان

فمقام العدل والظلم فلا يستويان

فشقيُّ في جحيمٍ و سعيدٌ في جنان

فستأ تيه وهذا العدل يجري

كنت أدري ..

ولنا من بعد هذا الموت بعثٌ و نشور

لم يكن في قدرة المبدع عجزٌ و قصور

وكلامٍ صدقٌ وكلام الرسل نور

وسواه كان كفرا و ضلالا

كنت أدري ..

وقصورٌ قد بنيناها لمجدٍ و حياة

وبها خِلنا سنيقى و ستبقى خالدات !

فقضى اٍ عليها فتلاشت خاويات

لنراها كيف تبنى وهو يبقى

كنت أدري ..

ولا شك أن علاقة الشيخ كاظم رحمه اٍ بكبار علماء عصره و ثقتهم به و اعتمادهم عليه كآية
اٍ الميرزا موسى الحائري قدس سره و آية اٍ الشيخ حبيب بن قرين قدس سره و آية اٍ الشيخ محمد حسين
كاشف الغطاء قدس سره و آية اٍ الشيخ موسى بو خمسين قدس سره كانت أحد أسباب إيمان الناس بما ينطوي

عليه هذا الرجل من سجايا كريمة و مواهب شريفة ,

فقد بعثه آية الله الميرزا موسى الحائري إلى سوق الشيوخ نائبا ووكيلا عنه , كما كان وكيلا أيضا عن آية الله الشيخ حبيب بن قرين و آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

وعندما عاد الشيخ كاظم من العراق إلى الأحساء استضافة آية الله الشيخ موسى بوخمسين وأكرمه أيما إكرام , وعندما سافر الشيخ كاظم إلى البحرين أحسَّ بشوق عارم إلى الأحساء وأهلها , فنظم قصيدة جميلة و بعثها إلى الشيخ موسى يمدحه و يعبر عن حنينه للأحساء وأهلها بحنينه للشيخ موسى يقول فيها :

أرى أنمُلي يا زعيم الحكَم°
عراها ارتعاشُ بضمّ القلم°
وقد كان ينطق كالعندليب
فأضحى لهيبتكم كالأمم
ومن عجبٍ نظمته للحروف
وأحرفكم نسخَت° ما نظَم°
أمولايَ هب لي فنون الكلام
وعلم البيان بنطقٍ و فم°
ترفعتَ بالعلم والمكرمات
وسُدتَ بها عربها والعجم
فأنت المراد و نور البلاد
وعز العباد و كنز الشيم
وفيك الحسا قد علا قدرها
وأضحت تفاخر بين الأمم

وعندما انتقل آية الله الشيخ موسى بو خمسين إلى جوار به رثاه بقصيدة عبّر فيها عن صدق محبته له و حزنه على فقده يقول فيها :

قد حُقُّ أن لا أرى في الأرض مبتسماً

أنسى .. وأثبتُ ركنٍ للهدى انهدما ؟

لفقد مَنْ كان للإسلام ركن حمّى

أعني به الشيخ موسى سيّد العلما

أعظم بفقد عظيمٍ جلّ فادحُهُ

على الحساءِ فعمّ العُرْبُ والعجما

أصبح يا حاملا نعش الحبيب فقفا

لا ترحلنْ فقلبي ذاب وانصرما

إنه الحب الحقيقي والمشاعر الصادقة عندما تنهمر سحرًا و لوعةً ووفاءً ووجدانًا . ولماذا لا يكون الشيخ كاظم كذلك وهو ربيب مدرسة الوجد الحسيني , وفارس منابر الشّجى الكربلائي , ولسان الباكين على سيد الشهداء عليه السلام و ما تأبينه للشيخ موسى إلا حرف واحد من أبجدية حزنه على أبي الأحرار الذي قال في رثائه في إحدى روائعه العاشورائية :

أيّ خطبٍ دكّ السما و الجبالا

وبه الأرض زلزلت° زلزالا

هو يوم الحسين أعظم يومٍ

قد أرانا يحزنه الأهوالا

فرأينا البكاء فيه سبيلا

فسلكناه طاعة وامتثالا

ومن الفنون الشعرية التي برع فيها الشيخ كاظم رحمه الله فن التخميس الذي كان مضمرا يتنافس فيه الشعراء آنذاك لإبراز قدراتهم ومهاراتهم في ترويض البيان لمشيئتهم الإبداعية . وقد أبدع الشيخ كاظم وجلّ في هذا المضمار و تفوّق على الكثير من شعراء عصره , يقول مخمّسا لأبيات من قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام مخاطبا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام :

أبا حسنٍ يا أمنع الناس جيرةً

وأعلى الورى فضلا و فخراً و سيرةً

بناتك يا كرّار أمست أسيرةً

(أترضى وأنت الثاقب العزم غيرةً

يلاحظها حسرى القناع يزيدُ ؟)

وقال في تخميس البيتين الشهيرين للمتنبى في أمير المؤمنين عليه السلام :

□ نور المرتضى علّام الهدى
نور تبلّج بالضياء مدى المدى
رمتُ الحدود فلم أجدهُ محدّدًا
(وتركتُ مدحي للوصي تعمّدًا
إذ كان نورا مستطيلًا شاملًا)
ناءٍ عن الإدراك جوهرُ قدسه
إذ كان متّحدًا بأحمد جنسه
زيتُ يكاد يضيءُ قبل ممّسه
(وإذا استطال الشيء قام بنفسه
وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا)

وقال في تخميس البيتين المنسوبين للإمام الحسين عليه السلام في حبه لإبنته سكينة و لزوجته

الرباب :

ودادي للرباب فشا و سارا
فكان لها ولابنتها شعارا

فلا بهما أرى وإِ عارا
(لعمرِك أنني لأحب دارا
تحل بها سكينه والربابُ)
فلو لمحتهما شمس الجلالِ
عراها الخسف من فرط الجمال
ومذ بهما انطوى كل الكمال
(أحبهما وأبذل جل مالي
وليس لعاتبٍ عندي جوابُ)

وسببُ آخر من أسباب تعلق الناس بالشيخ كاظم وشغفهم بشعره وهو ولعه بنظم الطريف والظريف من الأشعار و خاصة في عدد من المخترعات الحديثة التي بدأت تظهر في البلاد في أيامه , فلم يفته تسجيل اندهاش المجتمع بها و تفاعله معها لأول وهلة بروحه المرحه ولغته المنسابة , فقد كتب في الطائرة و في المذياع وفي المروحة و في غيرها .

يقول في السيارة من قصيدة طويلة :

قد ركبنا بمركبٍ سيّارِ
وجميلٍ يضيءُ كالأقمارِ
وحجابٍ عن كل بردٍ و حرِّ
وأمانٍ من كل ذئبٍ ضارِ
وعلى وجهه سراجان لاحا
فأنارا كالكوكب السيّارِ

وقال في المروحة من أرجوزة طويلة أيضا :

وبَعْدُ إِنِّي نَاطِمٌ فِي المَرُوحَةِ

فَوَائِدًا بِفَضْلِهَا مَفْتُوحَةٌ

لأنها جاءت إلينا فآخرة

وصوتها يشبه صوت الطائرة

رأيتها في السقف كالقنديلِ

لاحتُ لنا بوجهها الجميلِ

تميل لليمينِ و اليسارِ

كغصن بانٍ مال في الأشجارِ

وتُذهِبُ الحَرَّ عَنِ الجُسُومِ

فتنعش النفوسَ بالنسيمِ

وقال في المذيع :

سبحان من خلق الإنسان من علقٍ

وعلم الناس أسراراً و تبياناً
وأودع الجواهر الأعلى بفطنته
فاستخرجته لأهل الأرض برهاناً
فصوت بغداد في الأحساء نسمعه
وصوت لندن في مصرٍ و لبناناً

ذلك هو الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله ، الشاعر الذي ملأ الدنيا
و شغل الناس أينما حلّ ،
واستأثر بكل الدهشة والإعجاب ، وتلك هي الأحساء التي كانت ولم ولن تزال محطة للعشق الإلهي ،
وأرجوحةً للمودة المحمدية ، و منهلاًً للولاء الحيدري ، يقف الزمان أمامها كل يوم وقفة إجلال و إكبار
لهذا الوفاء الذي لا تزيده العواصف الهوج إلا ثباتاً في الأرض
و شموخاً في السماء .

هذا وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين